الشاعر الاماراتي أحمد العسم:

كلما ازدادت الحالة العامة صعوبة كلما كبرت مسؤولية المثقف

أبو ظبي ـ «القدس العربي»:

من يزر مدينة رأس الخيمة، المدينة الخضراء التي تشمخ بجبالها وتسحر بهدوء بحرها، لابد أن تستأثر باعجابه هذه الطبيعة الجميلة حيث الجبال تحتضن البحر كاحتضان الأم لطفلها، من هنا بدأ تاريخ البحار العربي ابن ماجد، والشاعر ابن ظاهر، وكان لا بد لهذه الأرض أن تجدد عطاءها مع المبدعين ومنهم الشاعر أحمد العسم الذي تطفح قصائده بالوجد الانساني، وهو يحاور فيها الذات والذاكرة والأحلام بلغة تبحث عن الدفء العائلي والحنين الوجداني الى الماضي، رافعا صورة الأم الى أسمى الرموز الكونية، وهو يتملى بعمق نثريات الحياة من حوله وكأنه يكتب رحيق التاريخ اليومي لهذا المكان وتدفق الحياة فيه، باحثا في أزقته وفي زواياه الظليلة عن الجديد في الشعر، سواء بالفصحى أو باللهجة المحكية. جدير بالذكر أن للشاعر أحمد العسم مجموعة شعرية بعنوان «يحدث هذا فقط» ومجموعة أخرى باللهجة العامية، بالاضافة الى مجموعة مشتركة مع الشاعرين هاشم المعلم وعبد الله السبب بعنوان «مشهد في رئتي»، وستصدر له قريبا مجموعة جديدة. ويشغل حاليا رئيس هيئة اتحاد كتاب وأدباء الامارات في فرع رأس الخيمة. وهو يقول: أنا ابن هذه الأرض وابن ذاكرتها وأحلامها. ومن رأس الخيمة المدينة الخضراء والينابيع العذبة، كان لنا معه هذا اللقاء.

■ رأس الخيمة ذات طبيعة لها خصوصيتها الجميلة، ماذا أوحت لك هذه الخصوصية بجبالها وبحرها؟

■ رأس الخيمة.. تلك الواحة التي سقيتها بدموعي لم أغادرها مرة الا واشتهيتها كتفاحة طازجة عندما أغنيها ترقص، وعندما أوقع لها بكلماتي تتنفس من رئة واحدة، لأنها عاتبة على أهلها فما تني تطلب مزيداً من الحب مع أنني أهديتها مجموعتي الشعرية الأولى وكان البحر أحد عناصرها الرئيسية وهو الذي تسلم هديتي.

أحب رأس الخيمة نهاراً حيث الأصدقاء والعمل والرعاية والشغب الذي أمارسه بطريقتي الخاصة. وأحب رأس الخيمة ليلاً حيث يمنحني فرصة استثنائية لأمارس حريتي مع المكان ومغازلة أعمدة الكهرباء والأرجاء والبيوت المتناثرة في أطرافها. في الليل أسمعها تناديني وأعتقد أنني الشاعر الذي يلبي رغباتها ويكتب بوحها بصدق.

■ المشي في الطرقات القديمة الخالية أو في الطبيعة، ان بقيت موجودة على حالها.. ماذا تأخذ منها؟

■ عندما كنت يافعاً أسير في طرقاتها بحثاً عن شيء مجهول وكثيراً ما كنت أتخيل ما وراء الجدران أسرة تتسامر وتمارس الحب بكل معانيه ودلالاته.

وعندما أقترب من بيت أحد الأصدقاء أستذكر أحاديثه وكيفية توطيد علاقتي معه. وعندما كبرت تغير الحال.. صرت أضيف الى الطرقات والأحياء القديمة شيئاً من ذكرياتي، وخاصة عندما أسترجع أحداثا مهمة في نشأتي، هناك في الزاوية الفارغة شجرة النبق التي أقطف منها بعض الثمار أتسلى بأكلها ريثما يأتي ذلك الصديق لأنني تعودت على عدم انضباط مواعيده.. وتحت شجرة النخيل الباسقة أنتظر والدي عندما يعود بقامته الفارعة، وهو يحمل ما نشتهي ونحب. وفي وسط الحي حيث تسود الحركة أستمر في المكان أراقب وأتأمل، كل شيء يمنحني الأسئلة التي لا اجابة لها عندي. هذا في الحي أما في المدينة كلها فلا بد أن أزور البحر وأحدثه ما في قلبي وأستمع على رجع صداه، كما لابد أن أتخيل كيف كان ابن ماجد يرسم بخطواته مواقع المدينة وكيف كان ابن ظاهر ينشد لجلفار وهو على صهوة جواده أو على ظهر ناقته. وفي كل الأحوال.. أحمد عيسى العسم صديق الليل وعاشق الطبيعة.. ملاذه البحر.. وسعادته في رسم ضجيج شاعر في أقصى شارع برأس الخيمة يشكو من وحدته.

■ تراجع الشعر أمام الرواية في معظم الدول العربية، هل الحالة كذلك في الامارات؟ وما أسباب ذلك في رأيك؟

■ لا أعتقد بأن الشعر تراجع، ولكن الشعراء غادروا نصاعته وبريقه فخسروا جمهوره، ولن ينافس الشعر الرواية حتى يصادق الجماهير ويخاطب العقول والقلوب في آن معا. واذا كانت الرواية قد سبقت الشعر في عصرها الحاضر فلأنها انخرطت في الحدث وحملت على عاتقها مخاطبة العقل والضمير والقلب.. انها قارئة العصر حاضرا ومستقبلا في الوقت الذي يرامح الشعر في أقبية الابهام أو التحليق خارج السرب.

■ التراث وتواصلك معه واضح، كيف تنظر الى هذا التراث؟ وهل تراه بخير؟

■ أشتم من التراث رائحة الآباء والأجداد، وكثيراً ما أشعر بالفخر والاعتزاز بهذا التراث الرائع الذي يعكس جهودا جبارة وأفعالا رائعة وانجازات مهمة في زمن كانت فيه الحضارة متواضعة الى حد كبير. هذا التراث يرسخ هويتي، ويدفعني الى المزيد من العشق الى هذه الأرض، وتزداد سعادتي عندما ألتقط بعض مكنوناته وأشتغل عليها وأتوصل الى نتائج تمدني بمرموزات ودلالات ضرورية ومهمة. واذا كان مثل تراثنا كمثل تراث أي بلد من بلدان العالم فيه الرائع الساحر وفيه الجيد والمتوسط وفيه العادي، فان ما يلفت نظري كشاعر ما هو متألق، وما يقدم لي بوحا لكي أتماهى معه وأستقرئ خباياه.

■ تبدو عنايتك باللغة الشعرية الى حد أنك ترى الحياة فيها، لكن هناك من يرددون كلمة «شاعرية»، أين الشاعرية من الشعر؟

■ الشعرية هي قاعدة للشاعرية وهي الأساس الذي يستند اليه الشاعر من أجل أن يصل الى الحالة الشعرية التي هي المستوى الأرقى في كتابة النص ولئن كانت الشعرية ثابتة، فان الشاعرية متحركة، لأنها تتبلور من خلال تعاطف الشاعر مع موضوعه وحبه له .. ولأنها ترتبط باندفاعات الشاعر ومدى قناعته بما يكتب ولمن يكتب. وبناء على ما تقدم فان الشاعرية لا يمكن الا أن تكون ذات مستوى واحد في كل ما يكتبه الشاعر.

الشاعر انسان يتشكل من ذاته ومن محيطه وعواطفه وخياله وعشقه وكرهه و.. و.. فكيف سيظل على وتيرة واحدة الحياة كلها وفي ابداعه كله.

■ مجموعة: «مشهد في رئتي»، وهو عمل يضم ثلاثة أصدقاء، هل انجاز عمل شعري مشترك يحقق الغاية المطلوبة منه، كيف تنظر الى الصداقة، ومن هو الصديق الحميم للشاعر؟

■ مجموعة «مشهد في رئتي» لم تكن من أجل تحقيق الغاية التي تطلبها.. انها احتفالية صداقية تعبر عن ارتباط حياتي عبر الفعل والكلمة وهي تجربة لشعراء تقاربت تجاربهم من بعضها في زمنها وجودتها ورؤيتها وقد قرظها الكثيرون واعتبروها تجربة مهمة لأنها تنقسم الى ثلاثة أقسام وكل قسم يختص بشاعر اضافة الى قصائد كتبناها معا.. وعندما يدقق القارئ بهذا الفعل ودلالاته لا بد أن يصل الى نتيجة أقل ما يمكن القول فيها انها تجربة تستحق التأمل.

■ كان في تونس احتفال بمجموعة «يحدث هذا فقط» ونشرت الصحف بعضا منها، كيف ترى التواصل الثقافي بين الامارات والمغرب العربي؟

■ ما زال التواصل الثقافي بين الامارات والمغرب العربي بحاجة الى تفعيل وأرى أن هذا التفعيل بدأ، لكنه ما زال بطيئا.. وعندما يصل الى الدرجة المنشودة سوف تعم استفادة الجميع، فنحن بحاجة الى الاطلاع على ابداع أخوتنا في المغرب العربي كما أنهم بحاجة لذلك. ولا شك أن التقنيات الحديثة بدأت تلعب دورها في هذا الموضوع، ولهذا كتب عن «يحدث هذا فقط» وعن تجربة أحمد العسم الشعرية. وأدهشتني الآراء النقدية، وانني بهذه المناسبة أتقدم اليهم بعميق الشكر والتقدير وأقول لهم ان دولة الامارات العربية المتحدة كانت وما زالت الساعية الى تواصل ثقافي فعال يرسخ ثقافة تواكب العصر.

■ بعيدا عن الشعر، ما هي الهوايات التي تمارسها؟

■ في صغري مارست هواية كرة القدم، أما الآن ومنذ عقدين فليس لي هواية سوى زيارة البحر لأشكو له ويشكو لي وعندما تضيق بي الدنيا أستلقي على كتفه وأغط في نوم عميق وهو يعزف سمفونية التجدد والحياة.

■ تراث ابن ماجد البحري وتراث ابن ظاهر الشعري، هل تم حفظهما بشكل جيد ليكونا مراجع للأجيال في الامارات العربية؟

■ هناك محاولات جادة وجديدة فالشاعر أحمد راشد ثاني والشاعر عياش يحياوي والباحث سلطان العميمي وغيرهم قدموا بحوثا هامة وتوثيقات لها قيمتها، لكن بشكل عام أنا غير راضٍ على مسيرة التوثيق التراثي البطيئة، فهناك رجالات لهم قيمتهم لا بد من استنطاقهم قبل أن يرحلوا. وفي الامارات تراث وآثار تعود الى مئات السنين تحتاج الى الدرس والبحث، وأسأل لماذا لا يكون في الجامعة فرع خاص للبحث التراثي والتحقيق وغير ذلك من اتجاهات تتعلق بالتراث للنهوض بهذا المرجع وتعميق مساراته.

احمد العسم (القدس العربي)

■ أين دور المثقف العربي في الظروف الصعبة التي تمر بها الأمة؟ وما الواجب الملقى على عاتقه؟

■ كثر أولئك الذين ابتعدوا عن الساحة مسوغين ذلك بأن الواقع المعاصر بتعقيداته لا يسمح بالكتابة أو التعبير، وأنا أقول كلما ازدادت الأمور تعقيدا كبرت المسؤولية على المثقف.. ثم متى يكون دور المثقف في وقت الرفاه أم في وقت المصاعب؟. أتطلع الى أن يأخذ المثقف العربي دوره الحقيقي في هذه الظروف القاسية التي تمر فيها أمتنا، لا بل أكثر من ذلك.. أن يكون طليعيا في طروحاته وأفكاره ليقود المسارات نحو شاطئ الأمان.

■ الشاعر أحمد العسم كتب الشعر باللغة المحكية واللغة الفصحى، أيهما أقرب للشاعر؟

■ الشعر المحكي عنصر من عناصر تراثنا وأنا أحبه، وفي كثير من الأحيان يأخذني الى ردهاته وأمطاره لكن قصيدتي الحقيقية تنتمي الى اللغة العربية الفصحى، لغة التعبير عن الذات ولغة الهوية القومية ولغة الأدب والانتشار. وعندما أكتب بالعامية فلأنني لا أريد أن أجود في الفصحى، المهم أنني أكتب الشعر الذي هو نور حياتي.

■ في عالمنا الحديث.. ابتعد دور الجدة عن التواصل مع الأحفاد كما أن العمل للمرأة ومشاكل الحياة الحديثة قلص الاهتمام بالأولاد، ما تأثير ذلك على الأجيال الجديدة؟

■ أنا كان ارتباطي بجدتي ارتباطا كبيرا، فأنا ربيت عند جدتي، وكل مساء أمي تأخذني الى جدتي فأقرأ الشعر عندها من خلالها ومن سماع حكاياتها. هذا الارتباط اثار عندي تساؤلات وتأملات، الآن أنا أكتب نص استرجاع للحكايات القديمة، أكتب عن «مريج» وهو الحارة، أتذكر طفولتي مع الجدة. كانت والدتي تعطيني المصروف وأصرفه فتقول لي «ما تنام الفقيرة وعندها باقي من الزخيرة» جدتي تقول لي: ما عليك منها اصرف، وتعطيني مصروفا. لما ماتت جدتي كانت أمي موجودة. ولكن يوم ماتت أمي كنت أفتقد موزعا جميلا لأشعاري، لدواويني، لمجموعاتي الشعرية. حقيقة كان موت والدتي مؤلما جداً فجعلتني أكتب نصا لم أجرؤ على نشره حتى الآن، نص اسمه «ماتت أمي». كتبت النص بدموعي ولم أتجرأ على أن أطلع عليه بعد كتابته لأنني أخاف على أمي. أنت، سيدتي، في هذا السؤال تحفرين في الأنين الداخلي، أنت الآن تحفرين بكل ما في الكلمة من معنى الحفر الموجع، الأم هذا الامتداد الجميل لا تعوض.. أنا شاعر ألتفت دائما الى الأشياء. لكني افتقدت من يحتفل بي لما أكتب نصا، وهي التي كانت تتباهى في حارة (الفريج) بين الأمهات، وهذا يمكن أن يكون تعويضا عن تقصيري بالدراسة، لأنني كنت في الدراسة أقل من جيد. لو أحكي الى الصبح عن أمي لا أنتهي. أقول:

يافديتك تعالي .. أفك الخط وأقرأ لك حروفه..
وأسولف لك عن خالة .. هي أم يا فديتك ..
تعالي أفتح كتاب عمري معاك أقلب صفحاته..
على عينك تشوف .. شو حالتك.. شو غلاوتك ... يا فديتك
هذه هي الأم، هي كل شيء حلو وجميل في حياتي.

التقته: فاطمة عطفة

قص

كما يحدث دائما

عماد أبو زيد*

■ يحدث دائما ان ارى العالم من خرم ابرة (لست وحدي)، لن اكون مكابرا وادعي الحكمة ورجاحة العقل واعترف بغير ذلك، فكثيرا ما تدفعني احتياجاتي لا سيما اذا حال الآخرون دون تلبيتها الى ان اتخذ موقفا منهم (هم لم يدخلوا عقلي بعد، ويرون كيف اضعهم في خلفية سوداء بوجوه قبيحة وعيون مقيتة). يقينا لقد كونت دوافعي صورة جديدة لهم على ان انسي موضوع التسامح قليلا وعلاقتي بالآخر.

ـ اداعي للجمل الاعتراضية؟

ـ ليس بوسعي غير ذلك.

الموعد المقرر لافتتاح المهرجان الذي تنظمه وزارة الثقافة الساعة التاسعة، كنا قد اتينا في رحلة الى محافظة الاسماعيلية تحت رعاية وزارة الثقافة وشعار الملتقى الفكري. جاءت هذه الرحلة ترضية لي وبديلا عن احد المؤتمرات التي لم ارضخ لها (هذا لا يهم فغاية المؤتمرات عندي ان اخلو بنفسي في مكان بعيد وجميل، ليس عيبا ان اجاهر بذلك) عندما عملت لفترة ما مدرسا كان لزاما عليّ الذهاب للمدرسة في العطلة الصيفية كشأن زملائي تحت قوة دفتر الحضور والانصراف، كان الجميع يسخرون من هذا الوضع ويرددون:

ـ الوزير عارف انها اجازة واننا لا نعمل.

كان المدير يبتسم:

ـ انها أوامر.

ـ كنا نقضي هذا الوقت في مجالس النميمة لم يكن أمامنا خيار غير ذلك، واذا كان الشيء يذكر فانه كان من حسنات هذه المجالس اننا نتحدث عن الديمقراطية وكثيرا ما كنا نسب الوزير ونلعن الحكومة.

ـ كانت غاية وزارة الثقافة ان يظهر افتتاح المؤتمر بصورة مشرفة امام كاميرات العالم، فعندما تكون قاعة المسرح محتشدة بالجماهير، يعطي انطباعا جيدا عن تحضر الدولة المضيف (طبعا انت في غنى الان عن الحديث الخاص بالتمثيل المشرف في الاوليمبيات والمسابقات الدولية)، كان دخولنا قبل موعد الافتتاح بساعة ونصف، جلسنا في الصف الثالث امام المسرح، الضوء الخافت يحثنا على الثرثرة، (التكييف) ايضا يشجع على ذلك اضافة الى الفتيات الجميلات اللاتي يضبطن خطواتهن على نغمات موسيقى خفيفة تشع من جنبات المسرح. تلقى الفتاة الجميلة جملة ترحيب في الميكروفون باللغة الانكليزية ثم العربية. كان جمع غفير قد تسرب الى القاعة لتضج بالتصفيق، لم يكونوا قد ادركوا بعد ما ادركناه، صرخت المخرجة:

ـ صعدت المسرح، امسكت بالميكروفون:

ـ دي بروفة ياجماعة، استأذنكم الخروج والعودة بعد ساعة من الآن.

حين حانت الساعة التاسعة الا خمس دقائق لم يكن المحافظ قد وصل (ليس من المهم ذكر اسمه، يكفي فقط ان تقول السيد اللواء المحافظ، وعلى اية حال فهذا افضل من نظير له بإحدى محافظات وسط الدلتا، كان يصر على تميزه بين المحافظين بلحق كلمتي اركان حرب على اللواء شفاهية عند ذكر اسمه او تقديمه في أي محفل، وعند كتابة اسمه على الطلبات والشكاوى المقدمة اليه، وكذا كل الصادر منه). خرجت قليلا خارج المسرح، كان الفنان رئيس المهرجان يعبر الشارع قلقا وهو ينظر في ساعته. مبنى المحافظة في الواجهة المقابلة للمسرح من الجهة الشرقية. عدت الى مكاني في القاعة، في التاسعة والنصف دخل الاثنين معا. بدا ان الجمهور كان في وضع استعداد للتصفيق. رحبت الفتاة الجميلة بالحضور ولجنة التحكيم ورئيس المهرجان، ودعت السيد اللواء المحافظ للصعود على خشبة المسرح لاعلان الافتتاح.

وكما يحدث دائما ان تُطفأ الأنوار عند العد التنازلي لبدء حفل الافتتاح، يحدث دائما ان يصفق الجمهور. كان من بين ما قرأت مشهد مكون من لقطات سريعة متتابعة فيما يعرف بالفوتومونتاج لمعظم الافلام التسجيلية للدول المشاركة، تلي ذلك عرض فيلم الافتتاح (العالم كما يراه بوش).

ـ كما كان أحمق وغبيا عندما اعلن الحرب على العراق ـ ادعى انه رجل دين محافظ كما ادعى (شارون) عند زيارته لأمريكا انه جاء لتحقيق نبوءة نهاية الزمان ـ استطاع (بوش) ان يقنع العالم بأسباب الحرب، وعاد ينفي ذلك. فضح الفيلم الخداع والوهم الذي باعه (بوش) للعالم.

منذ اسبوع اهداني الدكتور (جمال) صديقي دعوة انا وأسرتي لمسرح الطفل، تعلق صغيري بالعرائس ماريونت التي بدت في صورة جميلة مليئة بنشاط والحيوية. ما زال أمامه وقت حتى يدرك أن وراءها لاعبين يحركونها، ويبذلون الكثير من الجهد لاضحاكهم. (لا شيء آخر أود الحديث عنه، ولم أذكره، قليلا فقط دعوني اتذكر، لعلها اشياء تضحك فقط، لكن ليس عيبا ان اذكرها). مكالمة من الخلف عبر المبايل كانت رنة صغيرة مجسمة فتحت شهيته على الحديث، تصورته في مجلس الشعب أو مذيعا ينقل رسالة تلفزيونية على الهواء مباشرة (اسف انا انسان ولست منزها عن الضعف وحب الفضول)، كان مظهره المتأنق وكوم الأوراق الذي يضعه على وركيه و(البانفلت)، علاوة على حديثه لزميله بلغة متعالية أو لغة الواثق من نفسه قبيل الافتتاح، ودعوته له لمشاركته في عمل مجلة تهتم بأخبار الفنان العربي من الخليج الى المحيط، مع رغبته في أن يسمع من حوله اخباره واهتماماته دفعني الى الانتباه اليه او بالاحرى وضعني في مأزق المتهم بالتنصت. كان قد تناسى الفيلم نهائيا، والجمهور، وظل متعلقا بالمحمول. الأمر الاخر الذي أتذكره كان بشأن الرجل الجالس أمامي، ويديه اللتين أخذتا دوما وضع التصفيق بداية من ولوج المحافظ (بالقطع يحدث هذا دائما في أماكن أخرى).

---

* كاتب من مصر

نظرات في البلاغة العربية والنماذج اللسانية الحديثة:

نظرية النحو الوظيفي نموذجا

إدريس عمراني*

■ تمثل البلاغة العربية في وقتنا الراهن ذلك المخزون الثقافي والموروث الفكري الهام للثقافة العربية بشكل عام، وبفضلها استطاع ثلة من الباحثين أن يبنوا تمثلاتهم العلمية البناءة لخلق جسر تواصل صريح وصادق بين إسهامات القدماء وإنتاجات المحدثين، ومن ثم كان من سمات البحث المعرفي الحديث هو هذا الصراع المرير الذي استمر ردحا من الزمن بين التراث البلاغي القديم والنماذج اللسانية المعاصرة، مع العلم بأن البلاغة العربية من قبل «عاشت إشكالية الحوار أو الصراع بين الشعري والتداولي بعفوية من أول نشأتها إلى عنفوان تضارب مذاهبها».(1)

من هذا المنطلق، فإن تعدد المنطلقات والمصادر ومسارات البحث في الدرس البلاغي العربي، قديمه وحديثه وكذا تنوع المؤثرات والخلفيات، أدى بشكل تلقائي وطبيعي إلى اختلاف الرؤى والتصورات وطرح العديد من التساؤلات المحرجة في هذا المضمار:

ـ هل ـ فعلا ـ العلاقة القائمة بين البلاغة العربية والمقاربات النصية الحديثة علاقة انقطاع أم تقاطع وعن أي بلاغة نتحدث، هل هي بلاغة جملة أم بلاغة نص؟ وهل يستطيع هذا العلم أن يفي برصد ظواهر النصوص لكي ينتقل من بلاغة خاصة إلى بلاغة عامة كلية؟ ثم هل تستجيب البلاغة العربية لكل شروط التنظير حتى نسائلها عن كفاياتها الفطرية والمراسية؟

ـ كيف نحين البلاغة العربية حتى تصبح مستجيبة لكل المقاربات الحديثة؟ وكيف تم استثمار أدواتها النظرية في أساليبنا الاقناعية والحجاجية؟ ثم ألا يمكن للدراسة البلاغية أن يكون لها دور في التربية الحجاجية للمواطن؟

لم تكن هذه الاسئلة/ الاشكالات الكبرى وليدة الصدفة، بل نبعت انطلاقا من مساهمات بعض الباحثين والمهتمين بالحقل التراثي في نحوه (2) عقدت بمدينة الدار البيضاء، مما حفزني على بلورة رؤية خاصة عن هذا الموضوع، واختزال كل مداخلات الأساتذة الاجلاء في توجهين كبيرين:

1 ـ البلاغة العربية والبعد الخطابي التداولي:

من نظرة متأنية وشاملة لمجمل «الإنجاز البلاغي في ضوء الأسئلة البلاغية، نقتنع بأن هذا التراث ما زال محاورا يثير الدهشة من جانبين: من حيث الشمول والعمق» (3).

فمن حيث العمق، يتبادر إلى الذهن سؤال جوهري قد سبق طرحه وهو: هل البلاغة العربية بلاغة جملة أم بلاغة نص؟

يجيب الدكتور العمري بأن البلاغة العربية لم تكن كما هو شائع بلاغة جملة على الإطلاق، بل كانت إنجازاتها العميقة قد انتقلت إلى مستوى النص، تنبني المعاني بعضها على بعض، ويفهم النص بعضه من بعض..» (4).

كيفما كان الأمر، فإن المتتبع للشأن البلاغي ـ كما أوضح ذلك عبد الإله بوغابة ـ يجد بلا مراء فيه عناصر المقاربة التداولية حاضرة في كل الخطابات البلاغية ومن سماتها البارزة، عنصري السياق والمقاوم فضلا عن المقاصد التي يستهدفها المخاطب من الخطاب انطلاقا من مبدأ أن «لكل مقام مقال». أما من حيث الشمول فيمكن الحكم بأن البلاغة العربية نظرية شاملة للمعنى في كل تجلياتها المختلفة سواء كانت ذات طبيعة تصورية كالتشبيه والاستعارة.. (علم المعاني مثلا)، أو كانت ذات طبيعة أسلوبية نصية كالمحسنات اللفظية (علم البديع).

بناء على هذه التوجهات، فإن البلاغة العربية بتعبير محمد حدوش «تعلمنا كيف نتكلم، بل تعلمنا كيف نقنع وكيف نتخذ القرار.. علما بأن الاقناع هو نشاط حيوي في فضاء اجتماعي واقتصادي مبني على المنافسة بين الأشخاص والافكار». ومن جهة أخرى فإن امتلاك المتكلم لكل الأدوات الحجاجية والتفاوضية والاقناعية تفترض بالضرورة اللجوء إلى توظيف عدد من الخطابات في الحياة الاجتماعية (الخطاب السياسي، الخطاب الأدبي، الخطاب الاشهاري..).

في هذا الاطار، يبدو أن إعادة تشكيل الذاكرة البلاغية تتطلب بالأساس النبش في مفاهيم الدلالة وأنواعها وأقسامها عند البلاغيين واللسانيين على حد سواء، كما ابرز ذلك عسو عمو، موضحا من هذه الناحية أن قواعد التوليد الدلالي عند كل من السكاكي وابن علي الجرجاني يمكن اعتمادها في عدد النماذج التطبيقية المحضة، كالقواعد التحويلية التي أقرتها النظرية التشومسكية. وإذا كانت بعض العروض قد حاولت التطرق لقضايا تداولية كبرى، فإن عروضا أخرى عملت على الاقتصار على بعض الظواهر البلاغية، منها الاحالة والاتساق والانجاز.

وقد نحى عبد العزيز بوضاض في هذا المنحى، مستعرضا فيه لمفهوم الاحالة (5) ودورها في بناء الكنايات الخطابية، مبينا أن الوحدات البلاغية في هذا النوع من التراكيب المجازية يتحول من وحدات نصية إلى كيانات خطابية».

من جهته أوضح محمد الفران أن الاتساق يمثل ركيزة من ركائز لسانيات الخطاب، لأن كل النماذج اللغوية الوظيفية أولته اهتماما كبيرا وعالجته من مناح متعددة كما نجد ذلك في نموذج النحو الوظيفي عند هاليداي والنموذج التفاعلي عند فان دايك والنموذج التوليدي التصوري عند بتوفي، وبنظرة أكثر توسعا سعى بنعيسى أزاييط إلى إبراز نظرية الكم الخطابي في البلاغة العربية انطلاقا من ثلاث نقط رئيسية:

أ ـ تقويم نظرية الكم البلاغي (العربية القديمة في ضوء مبدأ كرايس).

ب ـ ترسخ قاعدة «الخطاب البلاغي» العربي في أبعاده المعرفية والجمالية والاجرائية.

ج ـ محاولة استخلاص جهاز واصف لدينامية الفعل الخطابي البلاغي انطلاقا من ثوابت اللغة ومتغيرات الخطاب.

ثم اتخذ محمد العمري منحى آخر في المعالجة، حيث عمد فيه إلى طرح المسعى الدائم للبلاغة العربية وغير العربية بنزوع نسقي يصبو إلى الاختزال، ثم الانتهاء لوضع معايير مانعة، محاولا صياغة كل المقترحات الجديدة مع وضع خطة شاملة لاستيعاب وبلورة كل الأفكار البلاغية والاسلوبية في إطار علم النص وسيميائيات النص على حساب السؤال المركزي للأدبية.

ومن جهته قد محمد الحيرش مقاربة تداولية لعلاقة الخطاب بالمقام، مؤكدا على الموقع الرئيس والجوهري لعنصر المقام في البلاغة العربية. وفي ثنايا مداخلته دافع عن دعوى مفادها أن البلاغة العربية فهمت المقام فهما ديناميا وليس سكونيا كما يزعم بعض الدارسين المحدثين (تمام حسان مثلا)، مبرزا بأن ليس هناك بلاغة عربية واحدة بل بلاغة عربية بصيغة التعدد، ومثل لذلك ببلاغة السكاكي التي ارتقت في دراستها للمقام إلى مستوى الانموذج العلمي الرصين.

على هذا المستوى من التحليل، فقد ارتبط «سؤال المناسبة المقامية التداولية في أجلى صوره بالبحث عن فعالية علمية إقناعية خطابية من جهة (عند الجاحظ مثلا)، كما ارتبط من جهة أخرى بملاءمة العبارة للمقاصد ضمن نظرية النظم الاعجازية (أو يمكن ان ندعوه تداولية لسانية في مقابل التداولية الاقناعية النصية)، وارتبط من جهة ثالثة بالبحث عن بلاغة كلاسيكية ذوقية تقوم على الصحة والمناسبة عند ابن سنان مثلا (6).

وجملة القول، فإنه لن يحول بين الدارس البلاغي الحديث وبين الاهتمام بأسئلة البلاغة العربية واقتحاماتها إلا عدم استيعابها سؤالا وإنجازا» (7).

2 ـ نحو مقاربة تواصلية بديلة: نظرية النحو الوظيفي نموذجا

إن المتأمل في نظرية النحو الوظيفي (8) بنماذجها المتعاقبة (ما قبل المعيار «ديك 1978») والمعيار (ديك 1989 وديك 1997)، يجد بما لا يدع مجالا للشك، أنها النظرية الاكثر استجابة لشروط التنظير والنمذجة (9) مقارنة بمثيلاتها من النظريات اللسانية الاخرى. ومن ثم، فإن النظرية اللسانية لا تعد نظرية إلا في مستوى التفسير لا في مستوى الوصف، وبالتالي لا بد لها من موضوع، والذي يحدده هو النظرية، ونظرية النحو الوظيفي تمثل موضوعها في القدرة التواصلية بنموذجها الممثل لها هو نموذج مستعمل اللغة الطبيعية (10).

وحتى تكون الرؤية منسجمة وموضوع الندوة، جاءت مداخلة الدكتور أحمد المتوكل لتكشف اللثام عن ترابط بديع بين البلاغة العربية ونظرية النحو الوظيفي بحيث أبان فيها أن لمصطلح البلاغة ثلاثة معان:

1 ـ البلاغة ظاهرة: ومثلها في مجموعة ظواهر تقوم إلى جانب الظواهر النحوية والصرفية والصوتية، وهي ظواهر رصدت في أبواب علمي المعاني والبديع.

2 ـ البلاغة مكونا: بمعنى أن تكون البلاغة مستوى من مستويات التحليل.

3 ـ البلاغة علما: أي كما يفهمها البلاغيون القدماء، وصنفوها في أبوابه، كعلم البيان والمعاني والبديع.

من هذا المنطلق، عمد إلى تلخيص البلاغة باعتبارها مكونا في ثلاث دفوع أساسية:

أ ـ أن مستعملي اللغة الطبيعية منتجين ومتلقين لا يتواصلون بجمل منفردة وإنما بخطابات.

ب ـ أن لمستعملي اللغة الطبيعية قدرة تواصلية متكاملة، أي مجموعة من الملكات في التواصل المنتج (كالملكة المعرفية، الملكة اللغوية، الملكة الادراكية، الملكة المنطقية والملكة الاجتماعية).

ج ـ أن النظرية اللسانية الأكفى هي تلك النظرية التي ترصد جميع الملكات ولا تقتصر على الملكة اللغوية لوحدها، ويفضل في هذا الاطار النظرية التي توحد المقاربات الخطابية على مستوى الجهاز الواصف.

أما من حيث كونها علما، فقد اقترح أن تتخذ ـ حسب تصوره ـ أحد الوضعين التاليين:

أ ـ إما أن تؤرخ (تصبح تاريخا)، وإذاك يمكن اعتبارها حقبة تاريخية من تاريخ الفكر العربي.

ب ـ وإما أن تسترجع، بمعنى أن تصبح البلاغة العربية مرجعا، وبالتالي يمكن تفعيلها، وهو ما سماه بـ «التفعيل الدامج».

وقد زكى هذا الطرح، عرض عز الدين البوشيخي الذي كان يروم من خلاله إلى مطارحة وتقديم تصور تحليلي واضح لنموذج مستعمل اللغة الطبيعية وذلك بالعمل على نمذجة القدرة التواصلية التي تمكن المخلوقات البشرية من التواصل فيما بينها لغويا، مع إشارته إلى مكونات هذا النموذج وقوالبه وكيفية التفاعل فيما بين هذه القوالب. لكن ونحن نتحدث عن نموذج مستعمل اللغة الطبيعية وإنشاء الخطاب، فالأشكال الذي يظل عالقا هو: كيف تتعالق هذه الطاقات المكونة للنموذج ـ فيما بينها؟ وما هي اللغة التي تتواصل بها؟

في هذا الاطار، استطاع عز الدين البوشيخي أن يختزل هذه الأسئلة في ثلاث إشكالات كبرى عميقة: إشكالية البنية، وإشكال العلاقات، واشكال التمثيل، وقد اختار ديك(ديك 1989) أن يعالج هذا الاشكال بالمقاربة القالبية على النحو التالي:

ـ أن تتصور كل طاقة في صورة قالب.

ـ كل قالب يتمتع باستقلاله الذاتي، ويتجلى ذلك في: بنيته، مبادئ عمله، تطوره.

ـ كل قالب يتفاعل مع القوالب الأخرى(11).

في حين راهنت مداخلة د. محمد جدير على فكرة توسيع الجهاز الواصف في نظرية النحو الوظيفي والانتقال به من نموذج جملي إلى نموذج قادر على رصد الظواهر اللغوية في أبعادها الخطابية، وحتى يتم التمكن من وضع نحو وظيفي للخطاب ثم اقتراح عدد من المقاربات، كرون (1997)، بولكستاين (1998)، فيت (1998)، والمقاربة الموسعة القالبية هنخفلد (2003)، والمتوكل (2003).

وعملا منه على تمحيص ورود وكفاية هذه المقاربات، عمد إلى بحث نقطتين جوهريتين:

أ ـ معالجة بعض الظواهر اللغوية، كالاستفهام والوظائف التداولية وتفاعلها مع الوظائف التركيبية والدلالية والقوة الانجازية وربطها بسياقها وظروفها المقامية.

ب ـ فحص قدرة هذه المقاربات على توفير تأويل دلالي لعمل إبداعي برمته كالعمل الروائي البوليسي الذي يشكل متنا لدراسة رواية «ضحايا الفجر» لميلودي حمدوشي.

ومن العروض التي عملت على مقاربة النماذج اللسانية الحديثة، عرض نعيمة الزهري الذي يتجه إلى بحث عملية التواصل بشقيها: الانتاج والتأويل، مؤكدة على أن النظرية اللسانية التي تروم بلوغ الكفاية التفسيرية عليها وصف هذه العملية في تعقيدها وحركيتها، وأعقبت ذلك بالوقوف عند عملية إنتاج الخطاب كما سطرها عبد القاهر الجرجاني من خلال نظرية النظم من جهة، وكذا عملية إنتاج الخطاب وتأويله كما وردت في نظرية النحو الوظيفي من جهة أخرى، مبرزة أوجه الاختلاف والائتلاف بين التصورين.

يمكن القول إجمالا، إن هذه الندوة قد شكلت بالفعل لبنة أساسية ومحطة مهمة وبارزة لكل الباحثين والدارسين للفت الانتباه والاهتمام أكثر بتراثنا البلاغي العربي، والارتقاء به إلى مصاف المقاربات اللسانية الحديثة. والأمل معقود على عقد أيام دراسية أخرى وندوات لتسليط المزيد من الأضواء على هذه المحطات.

---

*باحث من المغرب

الهوامش: العمري محمد: البلاغة الادبية: «أصولها وامتداداتها» إفريقيا الشرق 1999، بيروت، لبنان، ص 30.

1 ـ نظمت شعبة اللغة العربية وآدابها، يوم 17 و18 اذار (مارس) 2004، ندوة حول: «البلاغة العربية والمقاربات النصية الحديثة، انفصال أم اتصال؟»، نظمت بكلية الآداب والعلوم الانسانية، عين الشق، الدار البيضاء.

2 ـ العمري محمد: المرجع نفسه، ص 29

3 ـ العمري محمد: المرجع نفسه، ص 32

4 ـ لمزيد من الاطلاع، انظر البحث الذي أنجزته لتحضير دبلوم الدراسات العليا المعمقة في موضوع «دور المعرفة المشتركة في إنشاء الخطاب وتأويله» مرقون بكلية الآداب، ظهر المهراز، فاس 2001/2002.

5 ـ العمري محمد، المرجعي نفسه، ص 30

6 ـ العمري محمد، المرجع نفسه، ص 32

7 ـ رائد هذه النظرية الوظيفية، اللساني الهولندي سيمون ديك.

8 ـ للتأكد من صحة هذا الافتراض، انظر المتوكل (المتوكل 1985).

9 ـ من إحدى محاضرات الدكتور عز الدين البوشيخي لطلبة السلك الثالث، المعنونة بـ «التوصل اللغوي في اللسانيات الوظيفية» موسم 2003/2004.

10 ـ البوشيخي عز الدين، نفسه.